ثنائية المكان والحنين في شعر ابن منقذ في كتابه "المنازل والديار"

دكتورة/ نادية عبد الرحمن محمد
كلية التربية– جامعة عين شمس

ملخص البحث :

يعنى هذا البحث الموسوم بـــ " ثنائية المكان والحنين في شعر ابن منقذ في كتابه "المنازل والديار" بخصوصية اختيارات ابن منقذ، والكشف عن دلالات الحنين التي يمكن أن تشير إلى أهمية تلك الأشعار التي ضمنها ابن منقذ فصول كتابه من شعره بعد اختياراته من شعر الآخرين، وتوزيع هذه المادة من شعر ابن منقذ في إطار الدلالات النفسية: الذاتية والاجتماعية للحنين من جهة أخرى.

وتأتي أهمية البحث من أن مفهوم المكان الأدبي يستدعي بالضرورة تنقيبا في النص، يكشف العلاقة بين الاستخدام الحقيقي للمكان والدلالة النفسية والاجتماعية التي تبرز في الإبداع، وتنير السياق العام للمبدع في علاقته بالمكان عبر الزمان الممتد في رحلة الإبداع، أو في نقطة زمنية إبداعية خاصة تربط بين الزمان والمكان بوصفهما مستودعَي الأحداث.

وقد تناول البحث دراسة الحنين وعلاقته بالمكان في أشعار ابن منقذ من خلال ما اختاره من شعره ليضمنه كتابه المنازل والديار؛ وذلك بعد ما اختار في كل فصل بعضا من أشعار بعض الشعراء الآخرين، وبيان كيف عبر ابن منقذ عن حالة الحنين التي كان يعيشها، وعلاقة المكان بمشاعره.

١) الأندلسي: ابن جابر، شعر ابن جابر الأندلسي، ت: د. أحمد فوزي الهيب، دار سعد الدين، دمشق، ط١ ،١٠٠٧م.

المقدمة:

ثنائية المكان والحنين في شعر ابن منقذ في كتابه "المنازل والديار بحث يتطرق إلى عالم الشاعر الخاص ويربط بين الدرس النفسي للأدب والظروف التي عاشها الشاعر وكيف استطاع توظيف الصور لتعبر عن نفسه الرافضة للرضا والقناعة بما كان يعيشه.

يهدف هذا البحث إلى ما يلي:

١- الكشف عن الدلالات النفسية: الذاتية والاجتماعية لاختيارات ابن منقذ من شعره في كتابه " المنازل والديار"

٢- الكشف عما يختلج في النفس المبدعة من مشاعر داخلية تجاه المكان المادي من جهة والمكان النفسي.

٣- الكشف عن انعكاس تجليات ذات المبدع، وما يعتمل فيها من مشاعر في اختياراتها لبعض أشعارها ليتم إثباتها في كتاب " المنازل والديار"

تعتمد الدراسة كتاب المنازل والديار؛ لأسامة بن منقذ، تحقيق مصطفى حجازي: دار سعاد الصباح، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط٢، ١٩٩٢ مصدرا أساسا تقوم عليه الدراسة.

ينقسم البحث إلى مقدمة، وتمهيد وثلاثة أقسام ؛ حيث تناولت المقدمة أهداف البحث، وأقسامه، والمصدر الأساس له، ويتناول التمهيد التعريف بكتاب "المنازل والديار"، ثم بيان مفهوم مصطلحي "المكان" و "الحنين"، وفي القسم الأول تم توظيف المنهج الوصفي الإحصائي؛ ليتناول البحث مناقشة طبيعة اختيارات ابن منقذ من شعره في كتاب "المنازل والديار" من حيث عدد الاختيارات، وطبيعة بنائها الشعري، وتوزيعها على فصول الكتاب، ومواضعها من كل فصل.

وفي القسم الثاني ناقشت الدلالات النفسية الذاتية للمكان وهي خمس دلالات: إظهار الحزن– إظهار الوحشة– الحنين إلى شرخ الشباب– تعزية النفس– الاعتبار.

وفي القسم الثالث عرضت الدلالات النفسية الاجتماعية، وهي ثلاث دلالات: الفخر والرثاء – الاغتراب – الحنين إلى الأوطان، وذلك من خلال توظيف المنهج النفسي في دراسة النصوص الأدبية.

تمهيد: مفاهيم ومصطلحات

يجدر بنا قبل أن نناقش مفهوم كل من مصطلحي الحنين والمكان أن نعرف بكتاب كتاب "المنازل والديار" لمؤلفه أسامة بن منقذ؛ وهو يعد من كتب المختارات الشعرية التي تتسم بالتصنيف الموضوعي، وذلك بالنظر لما حوته من اختيارات شعرية، سواء لما اختاره الشاعر لموضوعات الفصول في الكتاب من أشعار غيره، أم من شعره؛ فقد حوى مادة شعرية غزيرة مما ورد في أشعار العرب في عصور أدبية مختلفة، اتخذت هذه المادة خطا موضوعيا، وحقلا أدبيا يتناول المكان من جهة ذكر المنازل والديار والرسوم والأطلال، والدمن والمعاهد، والمغاني والآثار... إلخ، ومثل هذه المادة قد لقيت من الباحثين اهتماما في دراسة الشعر العربي لاسيما في مقدمات القصائد.

وقد امتد هذا الخط الموضوعي من كتاب "المنازل والديار" في خمسة عشر فصلا من فصول الكتاب الستة عشر، وجاء الفصل السادس عشر في بكاء الأهل والإخوان والأحباب، وقد ذكر ابن منقذ أن موضع هذا الباب كان الأولى أن يُصدَّر به الكتاب؛ لأن المنازل والديار إنما تُبكى لسكانها، لكنه أخَّره ليختم به الكتاب[1]، ولعل ذلك يشعرنا بالخط الموضوعي لمؤلفه.

وقد جمع ابن منقذ في اختياراته بين شعره وشعر غيره، وإن غلب شعر غيره على شعره، وتصدر الفصول المختلفة لموضوعات الاختيارات، وهذا ما يتميز به الكتاب بوصفه مؤلفا موضوعيا في الاختيارات الشعرية من جهة، ومن جهة أخرى من حيث دواعي التأليف؛ إذ "ألّفه عزاءً لنفسه، وتأساء لقلبه، حين عاد إلى بلده بعد رحلة بعيدة، فوجدها رسوما عافية، وأطلالا بالية، ومنازل خاوية بعد زلزال مروع أليم"[2]

وعلى ما كان لابن منقذ من باع في التأليف، إذ ذاع صيته مؤلفا في التاريخ والمناقب والأخبار، فإن أدبه في ديوانه كان له النصيب الأوفر من اهتمام الباحثين، وكذلك ذوقه النقدي في كتابه "البديع في نقد الشعر" ، أما كتابه "المنازل والديار" فقد تلقفه الباحثون بالدرس في إطار التصنيف الموضوعي للكتاب، وما حوى مما يناسب

---

(1) انظر: المنازل والديار: أسامة بن منقذ، تحقيق مصطفى حجازي: دار سعاد الصباح، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط٢، ١٩٩٢م، ص٤١٠

(2) المنازل والديار، مقدمة المحقق، ص٤

قضية بناء القصيدة، والمقدمات عبر العصور وموضوعاتها، وجلها انصب اهتمامه على اختياراته الشعرية في الكتاب بشكل عام.

ولم يلتفت أحد – في حدود علمي– إلى خصوصية اختيارات ابن منقذ من شعره في كل فصل من فصول الكتاب، والبواعث النفسية الحاكمة، أو دلالات الحنين التي يمكن أن تشير بشكل أو بآخر إلى أهمية تلك الاختيارات الشعرية من شعر ابن منقذ مع موضوع الفصل من جهة، وتوزيع هذه المادة من شعر ابن منقذ في إطار الدلالات النفسية: الذاتية والاجتماعية للحنين من جهة أخرى ، وهو ما يتبناه هذا البحث تحت عنوان: ثنائية المكان والحنين في اختياراته.

فلا شك في أن النص الأدبي طاقات متجددة وإيحاءات وتأثيرات تعطي للمتلقي والناقد الفرصة في الاندفاع المستمر للتفتيش والتنقيب سبرا لأغواره، واستثمارا للاتجاهات النقدية والفنية المختلفة، وفقا للقراءات المختلفة التي تعنى برصد مكونات النص وتفسيرها وتحليلها؛ سعيا لاستنطاق النص والكشف عما يمكن أن يحمله وفقا للقراءة النقدية.

مفهوم المكان:

لفظ المكان عام، وهو "مَفْعَل" من الفعل يدل على موضع الكينونة[١]، والمكان مكان الإنسان وغيره [٢]، وهو الموضع الحاوي للشيء[٣]. وهو جزء من مفهوم بقية الألفاظ التي تدل على مكان من مثل المنازل والديار والرسوم والأطلال، والدمن والمعاهد، والمغاني والآثار... إلخ، مما يدور في هذا الحقل اللغوي، بينما سائر الألفاظ تحمل سمات دلالية تميز كل منها عن الأخرى.

وقد نظرت علوم مختلفة إلى مفهوم المكان من زوايا متعددة، منها علوم الطبيعة مثل علم الفيزياء حيث الربط بين المكان والحركة، وعلم الهندسة حيث الربط بين المكان وأبعاد الطول والعرض والارتفاع، وعلم الجغرافيا حيث الربط بين المكان

(١) انظر العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ترتيب وتحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م ، مادة (مكن)

(٢) انظر جمهرة اللغة ، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، تحقيق : رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين ، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٧م،مادة (كمن)

(٣)انظر تاج العروس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي، المطبعة الخيرية، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط١، ١٩٨٦م، مادة (مكن)

ومتعلقاته: الطبيعة والاتجاهات والمناخ وسائر الموجودات المكانية فيما يعرف بالبيئة الجغرافية.

وكذلك عنيت بعض العلوم الإنسانية بمفهوم المكان، منها علم التاريخ من حيث علاقة المكان الجغرافي بالأحداث والعلاقات الإنسانية وأنظمة الحكم، وعلم الاجتماع حيث الربط بين المكان والإنسان والقيم الفردية والجماعية والثقافة والمستويات الحضارية. وعلم النفس حيث حقيقة المكان النفسية يقول عز الدين إسماعيل: إن الصفات الموضوعية للمكان ليست إلا وسيلة من وسائل قياسية تسهل التعامل بين الناس في حياتهم اليومية"[١]

كما أن مفهوم المكان قد استقطب اهتمام الباحثين في مجال الأدب ؛ إذ إن المكان يستوعب ذات الأديب شاعرا كان أو ناثرا، وفي تعاملاته مع المكان وما حوى من كائنات حية وجامدة، بشرية أو متعلقة بالبشر ، وأحداث شملت السلوك الإنساني الذاتي والاجتماعي، حيث الماضي بذكرياته والحاضر بتجلياته، والمستقبل بطموحاته؛ الأمر الذي من خلاله تتجلى رؤية الأديب للمكان وعلاقته بالإبداع الأدبي، وكيف يمكن أن يمثل باعثا انفعاليا للإبداع بدلالات نفسية ودلالات اجتماعية مختلفة، فضلا عن واقعية وجوده المادي.

ومن ثم فإن مفهوم المكان الأدبي يستدعي بالضرورة تنقيبا في النص، يكشف العلاقة بين الاستخدام الحقيقي للمكان والدلالة النفسية والاجتماعية التي تبرز في الإبداع، وتنير السياق العام للمبدع في علاقته بالمكان عبر الزمان في رحلة الإبداع، أو في نقطة زمنية إبداعية خاصة تربط بين الزمان والمكان بوصفهما مستودعَي الأحداث.

إن مفهوم المكان الأدبي في علاقته بالدلالة النفسية والدلالة الاجتماعية لدى المبدع موضوع أدبي خاص، يضم تحت لوائه حقلا لغويا من الألفاظ العربية المختلفة التي تعد من الأماكن، من قبيل الألفاظ التي شاعت في الأدب العربي، من مثل الأرض والمنازل والدور والبيوت، والمغاني والربوع، والمساكن والمحال والمعاهد، والأعلام والمعالم والعرصات، والأوطان والبلاد والديار والمدن ، والأطلال والرسوم والدمن والآثار[٢].

---

(١) التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل، مكتبة غريب، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط ٤، ١٩٨٤م، ص ٦٧

(٢) انظر المنازل والديار، أسامة بن منقذ ص٥

مفهوم الحنين:

يقال: حَنَّ يَحِنُّ إليه وله ، والمصدر: الحنين، وأصل الحنين في الناقة تمد عنقها إذا نَزَعَت إلى وطنها أو في إثر ولدها سواء رجّعت في صوتها أو لم ترجِّع، وهو بذلك: الشوق وتوقان النفس[١]. كما أن الحنين: كآبة تأخذ النفس بسبب البعد عن الوطن، وكآبة تحدثها الحسرة على ما فات وابتعد، وعكسه السُّلُو[٢].

والحنين " مصطلح أدبي طغى على الشعراء الذين ابتعدوا عن أوطانهم؛ فاعتراهم الشوق إليه، فكانوا يتغنون به وبجماله وهم بعيدون عنه، ولا يكون شعر الحنين إلى الأوطان إذا كان المرء في وطنه، إلا إذا كان في غربة نفسية"[٣]

فالحنين حالة شعورية تثور في نفس المرء الحانِّ تعبر عن شوقه إلى ما ألفه من إنسان أو مكان أو حال، وفي الوقت نفسه عن حسرة فراق ومعاناة فقدان. سواء كان المرء في غربة حقيقية، حيث تفصله المسافات بين وبين ما يحب موطنا كان أم أهلا أم أحبة، أو اغترابا داخل الوطن حيث مقاساة الغربة النفسية في فقد من ألفهم في الموطن لارتحالهم أو فقدهم.

وقد لقي ما اتصل بالحنين في الشعر العربي اهتماما من الشعراء العرب منذ العصر الجاهلي إلى العصر الحديث والأدب المعاصر؛ وقد عده المرزوقي غرضا من أغراض الشعر، وغاية من غاياته التي يسدد الشعراء نحوها ، وهي "وصف الديار والآثار، والحنين إلى المعاهد والأوطان، والتشبيب بالنساء، والتلطيف في الاجتداء، والتفنن في المديح والهجاء ..."[٤] لما له من تعلق بكل ما تميل إليه النفس بما تعتز به من قيم الانتماء إلى الموطن والقبيلة والعشيرة والأهل والأحباب والخلان أفرادا وجماعات، ولعله يزيد ارتباطا بالاغتراب، سواء عندما يفارق الشاعر أهله وأحباءه، أو موطنه أو كليهما لظروف تتباين بين تجربة شعرية وأخرى.

فقد يعيش المرء فترة في غيرِ وطنه يأتيه على غير رغبة، ليس إلا طلبا للرزق أو سعيا لتحقيق مجد، وربَّما يحبُّ فيه المقام لما وجد فيه من السعة والترف،

---

(١) انظر لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم، دار صادر، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٩٤م. (حنن)

(٢) انظر معجم اللغة العربية المعاصر، أحمد مختار عمر، القاهرة، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، (حنن)

(٣) المعجم المفصل في الأدب ، محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٩، ٣٨٥/١

(٤) شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، للمرزوقي، دار الكتب العلمية– بيروت، ط١، ٢٠٠٢ م ١٨/١

وفي أهله من حسن المعشر، وغير ذلك من حاجة المرء مما لا يعرف وطناً أو أرضاً، ولكنه مهما عاش في تلك البقعة بين أهلها فلا بدّ أنه مفارقهم يوما، ليعودَ إلى وطنه.

وقد واكب هذا الاهتمام من جانب الشعراء اهتمام من الدارسين، واتخذ اتجاهات متعددة، ليست هذا البحث موضع تبيانها وتصنيفها وتفصيلها. ويعد تقصي الدلالات النفسية للحنين: الذاتية والاجتماعية في علاقتها بالمكان من القضايا ذات الأهمية في نظري بالنسبة لاختيارات أسامة بن منقذ.

فلا يكون مفهوم المكان واضحا في الأدب دون التطرق إلى علاقته بالإنسان المبدع ذاته ودلالته النفسية، وعلاقاته الإنسانية المختلفة التي يتناولها إبداعه، حيث يفترض الباحث في الإبداع الأدبي صورة مرئية مسموعة لبيئة المكان النفسية: الذاتية والاجتماعية من جهة المبدع وعلاقاته الإنسانية في مقابل المكان الحقيقي الموضوعي في عملية الإبداع، يمكن أن تبرز من خلال ثنائية المكان والحنين الذاتي والغيري.

وقد مثلت فصول كتاب "المنازل والديار" الممتدة صورة المكان الواقعي المادي، ممتدا بين عناوين الفصول في ألفاظ عدة، دارت في الشعر العربي على امتداد عصوره، تحمل في دلالتها الإبداعية الشعرية الدلالات النفسية: الذاتية والاجتماعية تجسيدا لتفاعل المبدع مع نفسه ذاتيا، ومع غيره اجتماعيا؛ ليشهد المكان في فضاء الشعر أفراح المبدع بالوصل تارة، وأحزانه بالفراق تارة أخرى، يبثه شوقه أو يناجي فيه غربته، يستدعي فيه الذكرى، ويرسم فيه الأمل والألم.

وإذ اتخذنا الحنين حالة شعورية تثور في نفس المرء المفعم بالحنين تعبر عن شوقه إلى ما ألفه، وتعبر في الوقت نفسه عن حسرة فراق ومعاناة فقدان – لسوف نجد أنه من الأهمية أن نعيد قراءة هذه الاختيارات لنتعرف ثنائية المكان الشعري الذي يتجاوز الأسماء، والحنين الذي يجسد الحالة النفسية : الذاتية والاجتماعية للمبدع.

إن الشاعر في استخدامه الكلمات الحسية للدلالة على المكان – لا يقصد حشد العينيات البصرية لنا، فالألفاظ لا تمثل إلا وسيلة لتنشيط الحواس، ولكنه يتوجه بهذا الحشد إلى إحداث صورة تولد دلالة وقيمة شعورية، وتقدم تركيبة عقلية وعاطفية في لحظة من الزمن، فالشعور يظل مبهما في نفس الشاعر حتى يتشكل في صورة[1].

(1) التفسير النفسي للأدب، ص ٦٣

تساؤلات البحث:

يحاول هذا البحث الإجابة عن الأسئلة الآتية:

أولا: ما طبيعة الدراسة لشعر أسامة بن منقذ في كتابه "المنازل والديار"؟

ثانيا: ما الدلالات النفسية الذاتية للمكان في شعر ابن منقذ في كتابه "المنازل والديار"؟

ثالثا: ما الدلالات النفسية الاجتماعية للمكان في شعر ابن منقذ في كتابه "المنازل والديار"؟

أولا: طبيعة الدراسة لشعر أسامة بن منقذ في كتابه "المنازل والديار":

قسم ابن منقذ كتابه ستة عشر فصلا، مرتبة على الخطة التي أوردها في مقدمته، وقد تفاوتت مقدمات كل فصل فيما تشتمل من المداخل، فربما بدأ بآية قرآنية وأردفها ببيان بعض ألفاظها ووجوه تأويلها[١]، أو بدأ بحديث وآية[٢]، أو حديث وخبر[٣]، أو خبر عن صحابي أو تابعي[٤] والأكثر الذي عليه هو مباشرة الفصل بعد عنوانه بالاختيارات الشعرية[٥].

ولا يورد من أشعاره مما يراه مناسبا لفصل من فصول كتابه إلا مؤخرا عما اختاره من شعر غيره من الشعراء، ونادرا ما يورد ذلك قبل أن يختم الفصل؛ وذلك لمقاربة يراها في شعر له مع معنى أورده في شعر غيره[٦]. من مثل ما أورد في فصل ذكر الأوطان فيما قاله أبو بكر بن اللبانة[٧]:

قد طالَ بي أقطعُ البيداءَ مُنفردًا ولـيس يُسْفِرُ عن وجهِ المُنى سَفَرُ

كأنّما الأرضُ عنّي غيرُ راضيةٍ فليسَ لي وطنٌ فيها ولا وطر

ثم يقول : " ولي أبيات تشابه هذا المعنى، وهي[٨] :

وقد أفردَتْني الحادثاتُ فليس لي أنيسٌ، ولا في طارقِ الخَطبِ أعوانُ

كأنّيَ من غير التّرابِ نَبَتْ بيَ البِلادُ، فما لي في البسيطةِ أوطانُ

أجولُ، كما جالت قَذاةٌ بمُقْلَةٍ وأسْرِي، وساري النّجمِ في الأُفْقِ حَيرانُ

إذا قلتُ: هذا حين أُلقي عصا السُّرى دعاني إلى التّرحال ظلمٌ وعُدوانُ

ولم يورد أسامة بن منقذ من شعره شيئا في فصول سبعة من الكتاب، وهي في ذكر: المغاني ، الربع، الدمن، المساكن والمحال والمعاهد، البيت، وقد التزم فيما اختاره

---

(١) انظر المنازل والديار ص ٥٥، ص ١٩٠

(٢) السابق ص ٢٧١

(٣) السابق ص ٢٥١، ص ٢٥٤

(٤) السابق ص ٢١٩، ص ٢٤٢

(٥) السابق ص ٦، ص١٠٠ ، ص ١٠٩ ، ص ١٣٦ ، ص ١٥٦، ص ١٧٥

(٦) السابق ص ٢٢٩، ص ٢٣١، ص ٢٥٩، ص ٤١٩

(٧) السابق ص ٢٣١

(٨) السابق نفسه

بما قيد به شعر غيره من تضمنه اللفظ الذي عنون به الفصل؛ فلا نجد مقطعة شعرية له أو لغيره خلت من اللفظ الذي عنون به الفصل، حتى لو تضمنت غيره، مما يمكن إيراده في فصول أخرى من الكتاب.

وقد جمعت الدراسة اختيارات أسامة بن منقذ من شعره في كتابه "المنازل والديار" في فصوله المختلفة، فبلغ عدد المقطعات ٤٦ مقطعة شعرية موزعة ومتباينة في العدد، في الفصول التي أورد فيها ابن منقذ من اختيارات من شعره. كما بلغ عدد الأبيات في مجموع مقطعات اختيارات أسامة بن منقذ من شعره في كتابه " المنازل والديار" ٢٠٣ أبيات، وقد تفاوت عدد الأبيات في المقطعات بين بيتين إلى تسعة أبيات على الأكثر، ولم يفرد إلا بيتا واحدا، هو[١]:

وما كنتُ أهوى الدّارَ إلاّ لأهلِها على الدّارِ بعدَ الظّاعنينَ سَلامُ

وقد ذكر أنه أجاز به بيتًا قرأه على حائط مسجد في قرية "فَنَك"، وهو[٢]:

تَجنَّبتُ غِشيانَ الدِّيارِ وليس في تَجَنُّبِها بعد الفراقِ مَلامُ

وفيما يلي جدول تفصيلي يصور حجم اختيارات أسامة بن منقذ من شعره في كتابه " المنازل والديار" :

م	عنوان الفصل	عدد	عدد الأبيات
١	فصل في ذكر المنازل	١١	٥٦
٢	فصل في ذكر الديار	٨	٢٩
٣	فصل في ذكر المغاني	–	–
٤	فصل في ذكر الأطلال	١	٣
٥	فصل في ذكر الربع	–	–
٦	فصل في ذكر الدِّمَن	–	–
٧	فصل في ذكر الرسم	١	٥

(١) السابق ٩٤

(٢) السابق نفسه

م	عنوان الفصل	عدد	عدد الأبيات
٨	فصل في ذكر الآثار	١	٣
٩	فصل في ذكر المساكن والمحل والمعاهد	–	–
١٠	فصل في ذكر الأرض	٢	٤
١١	فصل في ذكر الأوطان	٥	١٥
١٢	فصل في ذكر المدن	١	٣
١٣	فصل في ذكر البلاد	٣	١٦
١٤	فصل في ذكر الدار	١٢	٦٣
١٥	فصل في ذكر البيت	–	–
١٦	فصل في ذكر بكاء الأهل والإخوان	١	٦
الإجمالي		٤٦	٢٠٣

ولقد جاءت ثنائية المكان والحنين في اختيارات أسامة ابن منقذ من شعره في كتابه " المنازل والديار" – كما يتضح من العرض السابق للمدونة– في صورة بنية المقطعة الشعرية، ، وإننا لنلمح فيها مناسبة حجم البنية الشعرية المقطعية وموضوع الحنين ، إذ هي البنية الشعرية المناسبة لدفقة شعورية تحمل في طياتها الدلالة النفسية، وهي كذلك ملائمة لزفرة تنطلق من صدر الشاعر، تريح الصدر، وتهدئ من وهج اللوعة .

وبتأمل هذه المدونة من خلال القراءة النفسية للأدب يمكن أن نعيد قراءة هذه الاختيارات الشعرية لأسامة بن منقذ من شعره في كتابه " المنازل والديار" من خلال مجالين، وفقا للمفهوم الإجرائي لـــ "الحنين" – الذي نتبناه في هذا البحث كما أسلفنا– وعلاقته بالمبدع، وهما:

- الدلالات النفسية الذاتية للمكان في اختيارات ابن منقذ من شعره في كتابه "المنازل والديار"
- الدلالات النفسية الاجتماعية للمكان في اختيارات ابن منقذ من شعره في كتابه "المنازل والديار"

وهي قراءة تتجاوز حدود التصنيف والتوزيع الذي اختطه ابن منقذ في تأليف كتابه– إلى استشراف فضاء شعري للمكان وعلاقته بحنين المبدع لما ألف في وطنه حالًّا ومغتربا، وفي علاقته بمسارح الشباب ومرابع الطفولة، وما آل إليه حال وطنه وأهله وخلانه. وهي قراءة تقترن بالتحليل ومحاولة إعادة إنتاج المعرفة في النص الأدبي محل الدراسة، تفسر وتؤول وتحلل الإشارات وتجمع الدلالات لتضيء النص نفسيا، وتسهم في الغاية من الطرح وهو فهم النص(١).

وليست ثمة مبالغة في أن الاتجاه النفسي في بحث الأدب قديم قِدَم الإغريق ونظراتهم البصيرة في الشعر والشعراء، فقد كان أفلاطون يرى أن الشعر إلهام أكثر من كونه يصدر عن عقل، والتفت أفلاطون إلى تغذية الشاعر للعواطف(٢). كَما أن للبحوث النفسية في الدراسات الأدبية دورا كبيرا؛ إذ تجعل الباحث معايشا الأديب عبر أدبه أو مدونة من أدبه تخص البحث، يترسم أحواله المزاجية، ومواقفه من الأشياء، ومشاعره النفسية ودلالاتها الذاتية والاجتماعية التي يستنبطها من القراءة النفسية للمدونة الشعرية، يحدد معاناته. وطرائق مغالبته إياها، يتتبع حديثه عن الوقائع وإيماءاتها إلى الذكريات والحنين، يصنف حنينه واشتياقه، ويفسر عذاباته، فالشاعر "حين يبدع يكون في حالة من الصحة واليقظة النفسية الواعية بكل ما في الواقع من حقيقة"(٣)

ولا نتطلع من خلال هذه القراءة لأكثر من الكشف عن الدلالات النفسية: الذاتية والاجتماعية لاختيارات ابن منقذ من شعره في كتابه " المنازل والديار" حيث يتجه البحث إليها ذاتها، لا يرمي إلى التوجه نحو شخصية ابن منقذ من حيث هو فرد، ولا التعرض لاختياراته لفهم شخصيته.

فإن علم النفس الأدبي يستوجب أن يكون الفن ذاته أو الأدب هو موضوع الدراسة والتحليل، لا أن يكون التوجه نحو شخصية الفنان أو الأديب من حيث هو فرد، ولا أن يكون التعرض لفنه أو أدبه من أجل فهم شخصيته، فهذا النوع من الدراسات ما زال أقرب إلى علم النفس منه إلى علم النفس الأدبي(٤).

---

(١) انظر: القراءة النفسية للأدب، محمد عيسى، مجلة جامعة دمشق، المجلد ١٩، العدد (١+٢) ، ٢٠٠٣ ، ص ٦٢

(٢) انظر: التفسير النفسي للأدب، ص ١٠٥

(٣) التفسير النفسي للأدب، ص ٢٤

(٤) السابق ص ١٢

ولما كانت الأعمال الأدبية لا تختلف كثيرا في طريقة إبداعها من حيث عناصرها ومكوناتها، وكون معرفتنا بتفاصيل الطريقة التي كتب بها الإنتاج الإبداعي الأدبي – قد لا تفيدنا كثيرا في فهم العمل الأدبي ذاته– لذا نؤثر أن ينصب البحث والدرس على المنتج الأدبي ذاته بعد أن صار واقعا بين أيدينا؛ ولذا ربما لا نجد البحث يلح في توظيف مكونات الفن الشعري إلا ليبرز تجليات القراءة النفسية لهذه الاختيارات.

ثانيا: الدلالات النفسية الذاتية للمكان:

تمثل الدلالات النفسية الذاتية للمكان ما يختلج في النفس من مشاعر داخلية تجاه المكان المادي من جهة والمكان النفسي من جهة أخرى فيما يتصل بذات المبدع، وما يعتمل فيها من مشاعر داخلية، تنعكس تجلياتها في اختيارات ابن منقذ من شعره في كتابه " المنازل والديار"، وقد رصدتها الدراسة موزعة على الدلالات الآتية:

١- إظهار الحزن
٢- إظهار الوحشة
٣- الحنين إلى شرخ الشباب
٤- تعزية النفس
٥- الاعتبار

وفيما يلي استعراض للدلالات النفسية الذاتية للمكان:

١- إظهار الحزن:

الحزن أحد مظاهر الكآبة النفسية ، ويكون حزن المرء في أحوال متعددة، منها مفارقة الأهل أو الأصدقاء أو الوطن، وفقد قريب أو عزيز، ويتضاعف باجتماعها على المرء. وربما انعكس الحزن الداخلي فصارت له علامات مادية تتجلى على قسمات الوجه، أو تتمثل في العيون الباكية أو المنطفئ بريقها بلا دمع.

وإذا كان الدمع أحد العلامات المادية على شدة الحزن، فإنه كذلك تأكيد وفاء لحدث، أو حفظ حق لذكرى، أو دليل على رعاية عهد، وليس آكد على ذلك من دموع تجدد الذكرى عند الحلول بمنازل الأحباب وقد درست، وأصابها البلي، فترسم الحزن

الذي يعتمل في نفس ابن منقذ، ويغالب عليه تماسكه؛ فتجري دموعه تجدد الذكرى، وتجسد دلالة الحنين الذي يجري على لسانه، يقول[١]:

هُـــوَ مَنْـــزِلُ الأحبـــابِ لـــم يَـــــدَع البِلـــــى إلا رِمامَـــــهْ

وعلـــــيّ حـــــقٌ أنْ تـــــصا فِـــحَ سُـــحْبُ أجفـــاني رَغامَـــه

وأَبيكمـــــــا لأُرَوِّيَـــــــ ـــــنَّ ولـــو بـــسحّ دمٍ أُوامَـــه

فـــــإلامَ لومُكمـــــا؟ أفـــــي رَعْـــيِ العُهـــودِ علـــيّ آمـــة

ويزداد أثر ثنائية المكان والحنين في الدلالة على الحزن عندما تتعدد الأسباب كفقدِ الأهل و فقدِ الديار والأوطان، في صورة يبدو فيها الحزن متراكما، كأنما وطأ صدرَ المرء ما يثقله، حتى لم يعد بعد الحزن عليهما حزن، وكأنما لم يعد بعد الرزء فيهما ما يمكن أن يصيب به الدهر المرء، أو تبتليه به المنايا. يقول ابن منقذ[٢]:

إذا بكـــى لـــديار بـــادَ ســـاكنها ذو وحـــدةٍ ســـاءه فـــي دارِه الـــزمنُ

بكيـــتُ أهلـــي وأوطـــاني وآســـفني أن لـــيس لـــي بعـــدهم دارٌ ولا سَـــكَنُ

أَخنى الزمان علـــى قـــومي وملَّـــك أو طـــاني ســـوايَ، فـــلا أهـــلٌ ولا وَطَـــنُ

ولم تدع لـــيَ المنايـــا مـــشتكى حـــزَنٍ أبُثُّـــه كَمَـــدي إن عـــادني حـــزَنُ

وربما يكون المكان ذاته متجاوزا صورته المادية، مسيطرا بدلالته النفسية في صدر الشاعر، فيحفزه باعثا على إظهار الحزن وبث الشكوى، فينصرف الشاعر عن تفاصيل المكان والصورة المادية، مبرزا ومكثفا في كلمة واحدة (الأطلال) ليعبر عن المكان النفسي الذي يختلج به صدره بديلا عن المكان الطبيعي ، وتنطلق تعبيراته بدلالات الحنين تجسد دلالة إظهار الحزن على صورته التي آل إليها[٣]:

نعم هـــذه الأطـــلال قفـــر كمـــا تـــرى فما عـــذر أجفـــاني إذ لـــم تفـــضْ دمـــا

ولليـــوم أددتُ الـــدموع وصـــنتها ومـــا يـــستجم الـــدمعُ إلا ليـــسجُما

---

(١) المنازل والديار، ص ص ٢٨-٢٩

(٢) المنازل والديار، ص ٧٨

(٣)المنازل والديار، ص ١١٥-١١٦

وفي منزل الأحباب عـذرٌ لـذي هـوى فـــلا لـــوم إلا أن تجـــور وتظلمـــا

ويتوسل ابن منقذ بثقافته الشعرية، مشيرا إلى أبيات لتميم بن نويرة وينسج على منوالها في دفع ملامة البكاء على ما أحزنه، والبكاء على كل ما أشبهه تجديدا لذكراه، فيظهر في أبياته امتزاج الحزن بالحسرة، وتأكيد ملازمة العهد بالحزن، وسكب الدموع على من فقد من الأهل هالكا أو نائيا، والديار والوطن وقد صارت قفرا بعد مربع، يقول[1]:

يقول صِـحابي: قـد أطلـت وقوفنـا علـى الـدار مـسلوب الأسـى والتماسـكِ

أفـي كـل دارٍ عفـتْ أنـت واقـفٌ تـــروّي ثراهـــا بالـــدموع الـــسّوافكِ

كأنـك فـي رسـم الـديار "مـتمِّمٌ" وفيمـا عفـا مـن ربعهـا "قبـرُ مالـكِ"

فقلـت: نعـم، هـذي ديـار عهـدتها بهـا معـشري مثـل النجـومِ الـشّوابكِ

أصـابهم ريـبُ الزمـانِ فأصـبحتْ قفـارًا، وهـم بـين نـاءٍ وهالِـكِ

وفي مثله بعد أن يدفع لوم أصدقائه – صورة كثرت في هذا الملمح من دلالات الحنين للمكان– ، وقد تراكمت أسباب الحزن، إذ صارت الديار قفرا بعد محلّ، وتفرق شمل الأهل بين هالك ومفارق مباعد، يتعهد أن يديم الدمع عليهم، حتى إذا نفد الدمع فلن يتوقف حتى يبكيهم دما متصلا لا ينقطع، يقول[2]:

فقلت: نعـم هـذي ديـار عهـدتها عـرينَ أسـودي فـي الخطـوب ومعقلـي

فقد أصبحت قفـرا، وفـرق شـملَهم حـــوادثُ دهـــرٍ بـــالفراق موكّـــلِ

سـأبكيهم أو يمـزجُ الـدمُ أدمعـي فينهـل سـمطا كالجمـان المفـصَّلِ

ثم نجده يقابل بين حالين يوزع بينهما الأبيات في مقطعته، فيقسمها بين حالين: حيث يتحدث في البيتين الأولين بروح الفخر ليجعلنا نشعر بسعادته في حديثه، ثم يتحول في البيتين الأخيرين وكأن النور ينطفئ والصوت ينخرس، فيرسم البيتان شحوبا

(1) المنازل والديار، ص ٣٠٤

(2) السابق نفسه

يجسد دلالة حزنه على ما تبدل إليه المكان في صدره من مشاهدته، حزن يمتزج بالحكمة في نهايته، يقول[1]:

يا دار أنت التي كان الجميع بها وكان في ربعك الوِلْدَانُ والحَشَمُ

وكنت للضيف والعافين مُرْتَبَعا يقتادُهم نحوك الإكرامُ والكرمُ

أصبحتِ قفرا، وأضحى أهلك افترقوا أيدي سَبًا، وانثنتْ عن قصدكِ الهِمَمُ

ما أعجبَ الدّهرَ! عيشُ الناس أجمعِهم إن سرهم صرفُه أو ساءهم- حُلُمُ

ويوضح ابن منقذ مذهبه في الحزن، أللأهل أم للأرض التي كانوا يحلون عليها؟ وهو يكرر تجلي صورة صراع بين حالين لديار الأهل مختزلا كافة معاني التحول في لفظة "قفر" بعد ما كان فيها من العز والكرم، وتتكرر كذلك صورة الصحب، فيقابل فيها كذلك بين حالين؛ حال من بكى معه حزنا على حزنه، وحال من يدفعه عن السقوط في بئر حزنه البادي عليه، ثم يسجل في تكثيف شديد التساؤل حول مذهبه في الحزن ، بأنه إنما كان بكاؤه لا للأرض وإنما لمن وارتهم الأرض. يقول[2]:

نظرتُ إلى دارِ الأحبةِ قفرةً وقد كان فيها العز والكرم المَحْضُ

فلما رأى صحبي عليها تلدُّدي ودمعي بكى بعضٌ وعنّفني بعضُ

وقالوا: أفقْ، للأرض تبكي؟ فقلت: لا ولكنني أبكي لمن وارَتِ الأرضُ

٢- <u>إظهار الوحشة</u>:

الوحشة على ضربين؛ الوحشة من الأرض: القفر، والوحشة من الناس: للانقطاع وبعد القلوب عن المودة والإيلاف. والوحشة ضد الأُنس والخلوة والهم وذهاب الأعلام التي تميز المكان[3]، وأثر المكان في الشعور بالوحشة مشترك على الضربين، ففي الأول يستشعر المرء الوحشة إذا مر بقفر، أو تبدل حال الأرض التي كان له فيها ذكرى أو عزيز، وفي الآخر إذا فقد المرء من كان يحب له الأرض، أو وطئ موطئا لا يجد فيه من يركن إليه أو يألفه، أو يعوضه عمن فقد اغترابا أو افتقادا.

---

(1) المنازل والديار ص ص ٣٠٤- ٣٠٥

(2) السابق، ص ٣٠٦

(3) لسان العرب (وحش)

ويرتبط الحنين بشعور الوحشة، فما الوحشة إلا شعور يعكس الحنين لما يؤلف ويؤنس به من الناس وفيه من الأرض، وعلى ذلك مدار دلالة الحنين في إظهار الوحشة في اختيارات ابن منقذ من شعره في كتابه" المنازل والديار"، فهو كلما يمر بالديار وقد خلت من قاطنيها لا يرى فيها إلا الوحشة والظلمة والقفر، بعد دروس معالمها وأعلامها، فيجسد تسرب شعور الوحشة فيها، متعجبا مما صنعته الأيام بتلك الديار، من هول ما غيرت وبدلت، وأهلكت وأفقدت، يقول[1]:

هـذي ديـار بنـي أبـي ومعاشـري قفـرٌ عليهـا وحـشةٌ وظـلامُ

درسَـتْ محافظـةً لهـم، وتوحّـشتْ مـن بعـدِهم، وتعفَّـتِ الأعـلامُ

فإذا مَـررتَ بهـا فقُـلْ- مُتَمثِّلًـا-: "يـا دارُ، مـا صـنعتْ بِـكِ الأيـامُ؟"

ويتحدث مخاطبا دياره حين يراها قفرة من الأهل والمعشر، فيمزج خطابه بالحزن ويستدر الدمع رغم ما يضرمه في صدره من نار البين وافتقاد الأهل، حتى كأنه يعاين قبرا وهو يهلك وجدا على من فيه، فنجد تعبيرا فيه إيراد الوحشة بما يقابلها من الوحدة والانقطاع عن الأهل. يقول[2]:

يـا دارُ لـو روَّتْ مُحولَـكِ أدمعـي لـسفحتُها بـك، أو يمازجُهـا الـدّمُ

لكـنَّ دمـعَ الحـزنِ يحـسبُ قطـره مـاءً بَـرودا، وهـو جمـرٌ مُـضرَمُ

وإذا رأيتُـكِ قفـرةً مـن معـشري وبنـي أبـي، وهـم لعمـرك مـا هـمُ!

فكـأنّني عاينـتُ حُفْـرَةَ مالِـكٍ وكـأنّني – وجْـدًا عليـه- مُـتَمّمُ

وتزداد مشاعر الوحشة إذا اجتمع على المر لها من الأسباب؛ الابتعاد عن الوطن مع الإفراد دون الأهل، حتى لأن تكون الغربة في الجنان لأوشكت عند المرء ألا تعوض عن الوطن والأهل، وتظل الوحشة تعصر القلب، وتكدر النفس. وفي هذا المدار نجد ابن منقذ يستوحش الأرض بعيدا عن الوطن وطول الانقطاع عنه، فلا تركت له الأحداث الوطن ليستقر فيه، ولا وجد الراحة لنفسه في التنقل والترحال لما يتعرض له من الظلم. يقول[3]:

---

(1) السابق، ص ٧٦

(2) السابق، ص ٣٠٥

(3) السابق، ص ٢٣١

وقد أفردتني الحادثاتُ، فليس لي أنيسٌ، ولا في طارقِ الخطبِ أعوانُ

كأنّيَ من غير التراب نَبَتْ بيَ البلادُ، فما لي في البسيطةِ أوطانُ

أجولُ كما جالت قَذاةٌ بمُقلةٍ وأسري وساري النجمِ في الأُفق حيرانُ

إذا قُلتُ: هذا حينَ أُلقي عصا السُّرى دعاني إلى التَّرحالِ ظلمٌ وعُدوانُ

إن ابن منقذ يخرج ما في صدره من مشاعر نفسية ساخطة على استوحاش تلك الغربة التي يسكنها كرها، ونفسه متعلقة لا تجد سكينتها بعيدا عن دياره، ولا يفارقه حزن عليها، حتى يرى في القبر رِفقا لا يجده في تلك البلاد التي يستوحشها، مادام الدهر يصده عن العودة إلى الوطن. يقول[1]:

دارٌ سكنتُ بها كرها وما سكنتْ نفسي إلى سكنٍ فيها ولا شجَنِ

والقبرُ أرفقُ لي منها وأجملُ بي إنْ صدّني الدّهرُ عن عَوْدٍ إلى وطني

ولذلك تجد عند ابن منقذ انطلاقا من تلك الدلالة النفسية الذاتية مذهبا في البعد عن الأوطان، يتلخص في انتفاء الرضا بالحياة لمن بعد عنه أحبته أو ابتعد عنهم، وهو بعيد عنهم ليس في عداد الأحياء، يصرح به في قوله[2]:

وما الحياةُ لمن بانتْ أحبّتُهُ رِضًى، ولا هو في الأحياء معدود

وذهب في هذا البيت – وقد لبس ثوب الحكمة– إلى الكشف عن المعاناة التي يعانيها، والوحشة التي يستشعرها في البعد عن الديار والأوطان، وقد كشف تشكيل البيت من جُملُ قصيرة الصورة الموسيقية، كما أحالتها إلى زفرات تنطلق من صدره، لترسم ملامح الشحوب الذي يصل إلى حد تصوير ذاته في الأموات وهو على قيد الحياة، بعيدا عن أهله. وتعد الصورة أداة فنية، يحاول الشاعر من خلالها خلق نوع من التوافق النفسي بينه وبين العالم الخارجي، إلى جانب التوقيع الموسيقي الذي يعد أساسا في كل عمل شعري[3].

(1) السابق، ص ٢٣٦

(2) السابق، ص ٢٥٣

(3) التفسير النفسي للأدب، ص ٢٤

٣- **الحنين إلى شرخ الشباب:**

الشيب تجربة إنسانية تزيد في تعميق مشاعر الغربة والاغتراب العاملة في ذات الشاعر، ولا سبيل إلى وصل ذلك الشباب المفارق، بما فيه من مظاهر الجمال والحيوية، وثورة الحب، ونشاط الرحلة، واقتناص المتع واللذات، إلا من خلال الحنين؛ إذ ينزع الشاعر إلى الحنين إلى شرخ الشباب؛ ليكون ذلك إما دفعا لألم الحاضر بما فيه من مفارقة خصائص الشباب، أو إعادة التماس ذكريات الماضي، لما يمكن أن يجد فيها من السلوى.

ويرتبط الإنسان – عبر خط زمانه المتمثل في العمر – بملامح المكان الذي قضى فيه مراحل عمره، وأكثرها ارتباطا وتعلقا تلك الأماكن التي عاينت ذكرى الشباب بحلاوته ونضارته وحماسه، ويزداد ذلك الارتباط حين يتحول المكان، ويدير شرخ الشباب ظهره للمرء، فيجتمع على الإنسان حنينان، حنين المكان بمن كان فيه من الأهل، وحنين الشباب الزائل. يقول[١]:

حيِّي ربوعَكِ من رُبىً ومنازلِ ساري الغمامِ بكلِّ هامٍ هامِلِ

وسقتكِ يا دارَ الهوى بعدَ النَّوى وطْفاءُ تسفحُ بالْهَتونِ الهاطلِ

حتى تروّضَ كلَّ ماحٍ ماحلِ عافٍ، وتَروي كلَّ ذاوٍ ذابلِ

أبكيكِ أم أبكي زماني فيك، أم أهليك، أم شرخ الشباب الزّائلِ

ويكرر مثله حسرة رابطا بين المكان مسرح الديار والأهل والحنين إلى زمن الشباب بما حمله من السرور، حيث لم يبق منهما إلا جوى يشتعل في القلب، ويذكي ناره التذكار الذي لا ينقطع، يقول[٢]:

يا دار غيّرك البلى وتحكمتْ فيك الخطوبُ ومَحَّتِ الآثارُ

أصبحتِ تعرفُك القلوبُ توهّما ويصُدُّ عنك الأعينَ الإنكارُ

لم يُبقِ منك الدهرُ رسما ماثلا يُنبي بأن هناك كانت دارُ

لهفي على الزمن القصير قطعتُهُ بك، إنَّ أيامَ السرور قِصَارُ

---

(١) المنازل والديار، ص ٢٧

(٢) السابق، ص ٣٠٢-٣٠٣

لم يَبقَ منــه ســوى جــوىً مُتــسعِّرٌ فـــي القلـــبِ يُـــذكي نـــارَه التَّـــذكارُ

ويذكر مقدما المكان أساسا لما ألفه في زمن الشباب، فيقول[١]:

ديارٌ بهـــا صـــاحبتُ شـــرخَ شـــبيبتي أُجـــاددُه طـــورا وطـــورا أهازلُـــهْ

أروح إلـــى لهـــو الـــصبى ونعيمِـــهِ وأغـــدو علـــى ليـــث كمـــيٍّ أنازلُـــهْ

٤- تعزية النفس:

التعزية المواساة في الحزن والكَرْب وفي كافة الملمات، وفيها سؤال الصبر على ما كره وقُدّر، وللمرء أن يعزي نفسه، يقال: تعزَّى الرَّجلُ عن مُصابِه مُطاوع عَزَّى : تصبَّر ، تحلَّى بالصَّبر والسُّلوان[٢]

ومن أبلغ تعزية النفس الاستسلام لما قضى الله وقدر، ورغم ما في هذا الاستسلام من راحة للنفس فإن دلالة الحنين لما يعزي المرء نفسه عنه مستمرة في تدفقها، تبحث عن الأمل في اللقاء، حتى ليكاد لا ينقطع منه رجاء، ولكن الحقيقة أن من ماتوا لا جامع لشتاتهم بالمرء إلا يوم القيامة، يقول ابن منقذ:

يـــا ليـــت أن ديارنـــا كانـــت كـــذا طـــورا تفرقنـــا وطـــورا تجمـــعُ

لكنهـــا درســـت وأوحـــشها الـــردى مـــن أهلهـــا فهـــي القفـــارُ البلقـــعُ

لا يُرتجـــى لهـــمُ إيـــابٌ جـــامعٌ لـــشتاتهم حتـــى يُـــضَمَّ المجمـــعُ

وفي مثله تعزية لنفسه يرجي أول لقاء بمن فقدهم في تلك المنازل إلى لحظة انقضاء أجله، فحين يذكر نفسه بمصيره إلى ما صاروا إليه يجد فيه السلوى، فلا يستوحش الموت بقدر ما يرجو في ذلك اللحاق بهم. يقول[٣]:

هـــذي منـــازلهم عفـــتْ وتفرقـــوا فـــسل المنـــازل عـــنهم مـــاذا لَقُـــوا؟

تخبـــرُكَ أن الأرض قـــد وارتهـــمُ وأبـــتْ لهـــم أن يـــسمعوا أو ينطقـــوا

وبقيـــتُ بعـــدهمُ لِهَـــمٍّ فـــادحٍ وكآبـــةٍ تُـــضني، وخطـــبٍ يطـــرُقُ

أرجـــو اللحـــاقَ بهـــم، ودون لحَـــاقِهمْ بـــابٌ مـــن الأجـــل المؤقّـــتِ مغلـــقُ

---

(١) السابق، ص ٣٠٣

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، القاهرة، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، مادة: (عزي)

(٣) السابق، ص ٢٦

وفي مثله يعبر ابن منقذ عن تعزيته نفسه بيقينه في أن ما أصاب الديار وخلوها من أهلها، فإنه لاحقٌ بهم، ليقيم معهم حيث أقاموا، وينزل بينهم حيث نزلوا، وفي ذلك لنفسه تعزية حقيقية ومجازية، حقيقية على جهة دلالة الصبر على ما لقوا ففارقوه، ومجازية على جهة التسرية بأنه قد وجد السبيل للقاء بهم، غير أنه ينتظر ساعته، يقول[1]:

هـــذي منـــازلهم وأنـــــــــتَ بهـــم مُعنًـــى مغـــرمُ

فاســـفحْ دموعَـــكَ فـــي ثـــرا هـــــا أو يمازجَهـــــا الـــــدّمُ

واســـأل بهـــم صـــرفَ الزمـــا نِ فإنـــــــه هُـــــو أعلـــــمُ

يخبـــــرُكَ أن القـــــومَ قـــــد قـــدِموا علـــى مـــا قـــدّموا

وغـــدا نُخـــيّمُ حيـــثُ حَلُـــوا فـــــي القبـــــورِ وخيّمـــــوا

ويمضي ابن منقذ وقد وقف يذرف الدمع على رسم صامت خلا من أهله، ويتقدم خطوة واسعة في تعزية نفسه حتى ينصحها بالصبر على ما تجد، فللدهر تصرف الإخلاق والتشتيت، وعاقبة سكان الديار الموت، وعاقبة المنازل البلى، وعاقبة الشمل التفرق، ولا يرد من ذلك كله تفجع أو أسى. يقول[2]:

وقفـــتُ علـــى رســـمٍ ببيـــداء بلقـــعِ خَلِـــيٍّ مـــن النـــادي صـــموتٍ إذا دُعـــي

نَبَتْ عنه عيني ثم قـــال لهـــا البلـــى: هي الدار فاذري مـــن دموعِـــكِ أو دعـــي

ولا تُنكـــرَنْ للـــدّهر إخـــلاقَ جِـــدَّةٍ وتـــــشتيتَ أُلاّفٍ وإيحـــــاشَ مَجمـــــعِ

فللمـــوتِ ســـكانُ الـــديارِ، وللبلـــى منـــــازلُهُم، وشـــــملُهم للتّـــــصدُّعِ

فـــصبرا، فـــإن ردَّ التفجـــعُ والأســـى عليك الـــذي ولّـــى مـــن الأمـــر فـــاجزَعِ

٥- الاعتبار:

ليس بعد تعزية النفس دلالة إلا الاعتبار والعظة، ولاشك في أن الاعتبار امتداد للتعزية، فإذا كانت التعزية في وصل الحاضر بمن مضى، واشتراكهما في المصير

---

(1) السابق، ص ٢٩

(2) السابق، ص ١٨٢

والمآل، فالتعزية هنا للتصبر، ولكن ربما تباين الناس في الاعتبار والعظة؛ فبعض الناس قد يعزون أنفسهم ويتسلون بالصبر، ثم إذا طال بهم الأمد صار النسيان محل التعزية، والتأمت جروحهم وتداوت نفوسهم، وبعضهم تجيبه نفسه؛ فلا يقف عند تعزيها، بل يمضى بعد ذلك إلى اتخاذ العبرة والعظة، فلا يركن إلى الدَّعَةِ في الحياة، فيتخذ من الاعتبار درعا لمواجهة الأحزان ونواكب الدهر.

يقول ابن منقذ[1]:

قــل للــذي فقــدَ الأحبــةَ وانثنــى يــسقي منــازلهم دموعــا تــسجُمُ

مــاذا وقوفــك فــي الــديار مــسائلا عــن أهلهــا، ومتــى يجيــب الأبكــمُ؟!

ســلْ عــنهمُ صــرفَ الزمــان فإنــه بهــمُ مــن الــدارِ المحيلــةِ أعلــمُ

أفنــاهمُ ريــب المنــونِ ، وهــذهِ آثــارُهم عِظــةٌ لمــن يتوسَّــمُ

هــي شــيمةُ الأيــامِ : كــفٌّ تبْتنــي مــذ كانــت الــدنيا- وكــفٌّ تهــدِمُ

ولا يمنع الاعتبار الحسرة على ما فقد والحزن عليه، بل هو مبعثه، لأنه لما عز في وجوده افتقد في غيابه، فتحسر عليه، وصار مما قُضي فيه المثل بأنه لا خلود لشيء عز عليك أو لا، والمصير الذي يجمع كل الأشياء العدم. يقول ابن منقذ[2]:

اُنظــرْ منــازلَ آلِ منقــذَ إنهــا عظــةُ اللبيــبِ، وعِبْــرةٌ للنــاظرِ

كــانوا بهــا فــي نعمــةٍ محروســةٍ بمكــارمٍ وذوابــلٍ وبــواترِ

مــا رامهــا ملــكٌ ولا ذو قــدرةٍ إلا انثنــى عنهــا بقلــب طــائرِ

متلهّفا مــا اســطاعها، ومــن الــذي يلــجُ العــرينَ علــى الهِزَبْــرِ الخــادرِ؟!

فأصــابها قــدرٌ فأهلــك مــن بهــا وأعــاد شــامخها كرســمٍ دارِسِ

فــإذا ذكــرتهمُ عرتْنــي حــسرةٌ تمــري ســحائبَ دمعــيَ المتبــادرِ

---

(1) السابق، ص ٢٦.

(2) السابق، ص ٢٧

ولأن المعاينة للديار وقد أقفرت تكون ذات أثر بالغ، فقد يظهر أثر العِبْرَةِ منها تصريحا، وقد قدم البصر في كلام العرب حين قالوا: " ليس من رأى كمن سمع" تأكيدا لأثر المشاهدة ودور الصورة البصرية ووقعها في النفس، يقول ابن منقذ[١]:

لا جـــاد ربعَـــكِ مـــن ديـــار أقفـــرتْ مـــن أهلهـــا صـــوبُ الغمـــامِ المـــاطرِ

لـــم يُبـــقِ منـــك الـــدهر إلا حـــسرةً للـــــذاكرينَ ، وعبـــــرةً للنـــــاظرِ

يـــا حـــسنَ أول ذلـــك الـــدهرِ الـــذي قـــد كـــان فيـــك وقُـــبْحَ هـــذا الآخـــرِ

وتمتد العبرة عند من زكت نفسه حتى تصير حكمة، يتلقاها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فيستنطق ابن منقذ المكان ليجيب السؤال عن أهله وقد قضوا، ويُجري على لسانه الحكمة والعِبْرَةَ لمن اعتبر، يقول[٢]:

ســـلِ المـــدائنَ عمـــا كـــان يملكهـــا هل آنـــست مـــنهم مـــن بعـــدهم خبـــرا

فلو أجابتـــكَ قالـــت- وهـــي عالمـــة بسيرة الـــذاهبِ الماضـــي ومـــن غَبَـــرا

أرتْهمُ العبـــرَ الـــدنيا، فمـــا اعتبـــروا فـــــصيرتهم لقـــــوم بعـــــدَهم عِبَـــــرا

ثانيا: الدلالات النفسية الاجتماعية للمكان:

تمثل الدلالات النفسية الاجتماعية للمكان ما يختلج بالنفس من مشاعر تتصل من جهة بالمكان المادي الموضوعي، ومن جهة أخرى بالمكان الاجتماعي من حيث متعلقات المكان من حيث الأهل والخلان، وكذلك ما يعتمل في النفس من مشاعر تجاه عناصر خارج الشاعر ذاته.

وتنعكس تجليات الدلالات النفسية الاجتماعية للمكان في علاقة المكان والحنين في ثلاثة مجالات، وقد رصدتها الدراسة موزعة على الدلالات الآتية:

١- الفخر والرثاء
٢- الاغتراب.
٣- الحنين إلى الأوطان.

وفيما يلي استعراض للدلالات النفسية الذاتية للمكان:

---

(١) السابق، ص ٧٨

(٢) السابق، ص ٢٤٣

١- الفخر والرثاء

يعد المديح من أكثر موضوعات الشعر دورانا في الأدب العربي القديم، وكما كان من مظاهره التكلف والتصنع أحيانا طمعا في المكاسب من وراء المديح لدى بعض الشعراء – فإنه قد يكشف أحيانا أخرى عن دلالات نفسية اجتماعية مميزة بين المبدع والممدوح، والأمر ذاته في هذه العلاقة إذا كان موضوع المديح رثاء بذكر مآثر المتوفَّى.

ويفرق البعض بين المديح والفخر والرثاء باعتبار الممدوح وعلاقته بالمبدع، ولعل الفارق الرئيس عندهم في ذلك هو قضية التكسب الشعري، لكننا نلحظ أن مقصد الدلالة النفسية الاجتماعية هو الفارق في أغراض المدح، فالفخر والمديح والرثاء لدينا موضوع واحد وأغراضه متعددة، فإن كان لذاته دون أن يعكس دلالة نفسية اجتماعية بين المبدع والممدوح فهو مدح، وإن كان يعكس دلالة نفسية اجتماعية بين المبدع والممدوح الحي، فهو فخر يتسع للأهل والأصدقاء والأحباب، وإن كان يعكس علاقة نفسية اجتماعية بين المبدع والممدوح الميت فهو رثاء.

ومن منطلق تلك الدلالة النفسية الاجتماعية نستعرض ثنائية المكان والحنين في اختيارات ابن منقذ حيث نجد ابن منقذ دائما يربط بين المكان ومآثر أهله، فيسقط روعه وقد خلت المنازل منهم، وقد زال عنه درعه، وسقط سيفه، وتهدم حصنه. يقول[١]:

إلـــى اللهِ أشـــكو رَوعتـــي لمنـــازلٍ خلـــتْ، وجـــوى قلبـــي لأهـــل المنـــازلِ

سُـــيوفي إذا مـــا نـــازلتني مُلِمَّـــةٌ حُـــصوني إذا خفـــت الـــرّدى ومعـــاقلي

فالبيتان ينقلان فزعا داخليا يعتمل في نفس الشاعر، ليس من وحشة المنازل وقد خلت، وإنما لخلوها من هؤلاء الذين هذه صفاتهم، تهنأ معهم النفس وتأمن وتسعد، وبرحيلهم استوحش المنزل وفقدت النفس الأمن وامتلأ القلب جوى. واللافت للنظر الأدبي أن المآثر سارية بين الفخر والرثاء، لا يجليها إلا المقام الذي ذكره في بيت ثالث تال للبيتين، يقول فيه[٢]:

مَضوا سلفًا قبلـــي فلـــم أحـــظَ بعـــدهُم مـــن العـــيش والعمـــرِ الطويـــلِ بطائـــلِ

---

(١) المنازل والديار، ص٢٦.

(٢) السابق نفسه.

ويمضي ابن منقذ في مزج فخره برثائه، وانطلاقه في هذه الدلالة النفسية الاجتماعية من المكان، ما تلبث أن تلتهب مشاعر الفخر حماسا بحديث المآثر إلا تنقلب دمعات على فراق من كانت تلك مآثرهم، حتى يضرب بهم المثل، أو يتمثل فيهم بعيون الآيات من القرآن الكريم مما يتناسب مع السياق النفسي، وتوظيف العلاقة بين المكان ومن كان يحل فيه. يقول[1]:

يـــا منـــزلا كـــان فيـــه العـــزُّ مقترنًـــا بالـــسيفِ، والمـــالُ مقرونـــا إلـــى الكـــرمِ

من خاف جـــورا وعُـــدْمًا ثـــم لاذ بـــه لاقى الأمـــانَينِ مـــن جـــور ومـــن عَـــدَمِ

أفنتْ حُماتَـــك أحـــداث الزمـــان، فيـــا لَلَّـــهِ مـــن فتكهـــا بالأُسْـــدِ فـــي الأَجَـــمِ

أعيتْ منـــاواتُهم غُلْـــبَ الملـــوكِ إلـــى أنْ جـــاءهم قـــدر قـــد خُـــط بـــالقلمِ

"فأصـــبحوا لا تُـــرى إلا مـــساكنُهم" كـــأنّ مـــا خُوِّلـــوه كـــانَ فـــي الحُلُـــمِ

وتظل الدلالة النفسية الاجتماعية للفخر والرثاء، مرتبطة بالمكان، عندما يتحول من المنازل إلى الدور، فحيثما حل المكان الموضوعي نجده ذا دلالة حنين عند حديثه عن أهله، يقول[2]:

دارٌ علـــى قُلَـــلِ الجبـــالِ تفجّـــرتْ فيهـــا بحـــار فـــضائلٍ ومكـــارمِ

فيـــه النـــدى والجـــودُ حقًّـــا لا الـــذي كنـــا نُحَـــدَّث عـــن ســـماحَةِ حـــاتِمِ

وفـــوارسٌ جَمعـــوا المكـــارمَ والعُلـــى لـــينُ التّواضُـــعِ فـــي قلـــوبِ ضـــراغِمِ

أفنـــاهُمُ ريـــبُ المنـــونِ فلـــم يـــدع مـــنهم ســـوى ذكـــرٍ لحُلـــمِ الحـــالِمِ

قد مر فيما سبق تقديم ابن منقذ خطاب المكان على أهل المكان، وفيما يأتي نجده يعكس الترتيب، فيقدم ذكر بني منقذ في الأبيات ثم يعرج على المكان؛ ليبرز مدى الانصهار بين المكان الموضوعي والدلالة النفسية الاجتماعية له، يقول[3]:

بنـــو منقـــذ مـــا أُنقـــذوا مـــن زمـــانهم وكـــم أنقـــذوا مـــن مرهـــق وأســـيرِ

---

(1) السابق، ص ٢٨

(2) السابق، ص ٣٠٥

(3) السابق، ص ٧٧

أجـــاروا علـــى الأيـــام فاضـــطّغَنَتْهُمُ وما استمسكوا مـــن جَورهـــا بمُجيـــرِ
فلـــم يبـــقَ مـــنهم غيـــرُ حـــيٍّ كميّـــتٍ أخـــي حـــسرةٍ مـــا تنقـــضي وزفيـــرِ
فقـــد أقفـــرتْ مـــنهم ديـــارٌ عهـــدتها غياثـــا لملهـــوفٍ، وذخـــر فقيـــرِ

وزاد من انصهار المكان الموضوعي والدلالة النفسية الاجتماعية له في ذكر قومه فخرا ورثاء– ذلك التطريز البديعي في رد الأعجاز على الصدور بفنون البديع البارزة، مما ليس محله من الدراسة، غير أنه كان مؤثرا تأثيرا واضحا في جلاء التعبير عن العلاقة بين المكان ودلالته النفسية لدى الشاعر، التي تتجه اجتماعيا نحو حديث مآثر الأهل الذين كانوا حالِّين فيه.

كما أن إلحاح مفردات المكان الواقعي قد رسمت صورة للمكان النفسي لدى الشاعر، الذي انطلقت منه دلالة الحنين المتمثلة في الفخر والرثاء، فالصورة الشعرية تمثل المكان النفسي، وكل ما ترتبط به من المكان الواقعي هو المفردات بما لها من صفات حسية أصيلة أو مضافة إليها، وربما يفتتها الشاعر ليعيد بناءها مركزا على الصفات ودلالاتها وإيحاءاتها النفسية، يفرق إدراك الصفات الأصيلة والصفات المضافة إلى عينيات الواقع المكاني بين الحواس[١].

٢- الاغتراب :

الاغتراب يتجاوز الذات معنويا عندما يشعر المرء بالغربة في وطنه بين أهله، ويسمى اغترابا داخليا ذاتيا، أو تحول الإنسان عن وطنه إلى أرض وأناس آخرين. ويستخدم البعض كلمة الاغتراب في العلاقات الإنسانية " لتدل على الإحساس الذاتي بالغربة، أو الانسلاخ سواء عن الذات أو عن الآخرين"[٢] . فكلمة الاغتراب تدل على الغربة المكانية من جهة، ومن جهة أخرى تدل على الغربة الاجتماعية.

وتظهر بشكل خاص دلالة الاغتراب في اختيارات أسامة ابن منقذ، ويمكن أن نُرجع ذلك إلى تنوع صور المكان، وما يحمله ذلك من دلالات في طبيعة حياته الغنية بأحداثها نتيجة أساسية لعاملين: أولهما– اشتراكه في الحياة السياسية والاجتماعية للبيئات التي يتنقل فيها، وثانيهما فهم أسامة بن منقذ لرسالة شعره ووظيفته فهماً يقرب المسافة بين الأدب والحياة بأحداثها العاصفة ومنعكساتها الكبيرة على النفس ذاتيا

(١) التفسير النفسي للأدب، ص ٥٩

(٢) دراسات في سيكلوجية الاغتراب، عبد اللطيف محمد خليفة، دار غريب ، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٢٣

واجتماعيا، كما أن عمق علاقته بالأمكنة ترك مؤثرات حاسمة، فجاء شعره وثيقة تاريخية لثنائية المكان والحنين في تفاعلها مع محيطها المكاني ، بالإضافة إلى المحيط الزماني[١]

فإذا أضيف إلى ذلك أن المكان الذي قادته إليه خطى النفي، مضطرب بفتن سياسية وصراعات اجتماعية حادة ، انكشفت لنا بواعث شعوره بالانكسار والضياع، معبرة عن فقده الإحساس بأمان الانتماء ، ومن هنا يبرز إلحاحه على فكرة والانتماء والاغتراب في شعره[٢].

فنجده يتساءل كيف للمغترب عن وطنه أن يجد السرور ليتصبر به، وقد روع بالبين عن الوطن والأهل، فلا يجد من يحزن لحزنه، ولا يمكنه أن يشارك أحدا سروره، وإذا رأى جمعا وقد اشتملته وحدته وانفراده تزاحمت في صدره مشاعر الاضطراب والتهبت أنفاسه حرقة على غربته[٣].

أيــن الــسُّلوُّ مــن المُــروَّعِ بــالنّوى أبــــدا، فــــلا وطـــنٌ ولا خُلّـــانُ

عيـــدُ البَرِيّـــةِ موســـمٌ لعويلِـــهِ وســـرورهم فيـــه لـــه أحـــزانُ

وإذا رأى الـــشّملَ الجميـــعَ تزاحمَـــتْ فـــي قلبِـــه الأمـــواه والنيـــران

وقد أجاد ابن منقذ في تصوير مشاعره بصورة تزاحم الأمواه والنيران، بشكل يجسد حالة الاضطراب لما ألم به من دلالة الاغتراب، والأمر ليس لانتفاء اجتماعهما، بقدر ما يجسد الخيال مغالبة الأمواه والنيران، فيظن من يراه أنه لا يعاني في غربته، ولكنه في الحقيقة تشتعل النار في قلبه حيث لا يعاينها أحد، ويكابدها منفردا، تعميقا لدلالة الاغتراب والوحدة وبعده عن الوطن والأهل. وقديما قالوا : " عسرك في دارك أعز لك من يسرك في غربتك"[٤]

والشاعر "حين يستخدم خياله لا يهرب من الحقيقة، بل يلتمس الحقيقة كذلك في الخيال. فالخيال والواقع كلاهما وسيلة لنقل ذلك الصراع الداخلي الذي يعاني منه

---

(١) مؤثرات الزمان والمكان في أدب ابن منقذ، راتب سكر، مجلة التراث العربي، دمشق، سوريا العدد ٨٠، نوفمبر ٢٠٠٠، ص ١٦١

(٢) أسامة بن منقذ حياته وآثاره، حسن عباس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، جمهورية مصر العربية، ٩١/١٩٨١،١

(٣) المنازل والديار، ص٢٢٩.

(٤) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، نشرة مكتبة الخانجي، القاهرة ، بلا تاريخ، ٢/ ٣٧٧

الفنان... فالحقيقة أن الشاعر يحتال على الواقع بالخيال، أي إنه يحاول تعمق الواقع بالخيال، فهو إذن لا يهرب منه بل يغوص فيه... يحاكي الهروب من حالة إحساسه الحاد بالواقع، واقعه النفسي الذي يموج بألوان الصراع"[١]

وتلح صورة التأليف بين الماء والنار في سياق الاغتراب بوصفه دلالة نفسية اجتماعية لدى أسامة بن منقذ، حيث يقول[٢]:

يا مصرُ ما دُرْتِ في وهمي ولا خَلدي ... ولا أجالتْكِ خَلْواتي بأفكاري

ما أنت أول أرضٍ مسّ تُربتَها ... جلدي ولا فيك أوطاني وأوطاري

لكن إذا حُمَّتِ الأقدارُ كان لها ... قوى تؤلّفُ بين الماء والنّارِ

ويعكس ابن منقذ من خلال صورة الماء والنار معاناة المقيم في غير الوطن، إذا لم يكن له اختيار في الإقامة فيه، على مضض، تجتمع عليه فيه غصة غربة المكان والأهل، ومعاناة الوحشة والوحدة، ولا مناص للاستسلام للقدر، غير أن هذا الاستسلام لا تقر به عين ولا تهدأ به نفس.

وهكذا تظل الدلالة النفسية الاجتماعية للاغتراب في اختيارات أسامة بن منقذ من شعره في كتابه " المنازل والديار" تربط بين المكان والحنين، فيظل شعوره بعيدا عن موطنه يفرده بلا أنيس، ويشعره بالوحشة فلا وطن، يدعوه إلى الترحال ترحال؛ فلا مستقر. يقول[٣]:

وقد أفردَتْني الحادثاتُ فليس لي ... أنيسٌ، ولا في طارقِ الخَطبِ أَعوانُ

كأنّيَ من غير التّرابِ نَبَتْ بيَ البـ ... ـلادُ، فما لي في البسيطةِ أوطانُ

أجولُ، كما جالت قَذاةٌ بمُقْلَةٍ ... وأسري، وساري النّجمِ في الأُفْقِ حَيرانُ

إذا قلتُ: هذا حين أُلقي عصا السُّرى ... دعاني إلى التّرحال ظلمٌ وعُدوانُ

إن الوقوف على المعاينات المكانية الحسية كما يظهر لنا في اختيارات ابن منقذ من شعره في كتابه "المنازل والديار" قد لا يكون موضوعا تقليديا يتعمده الشاعر،

---

(١) التفسير النفسي للأدب، ص ٢٤

(٢) المنازل والديار، ص ٢٤٠

(٣) السابق، ص ٢٣١

ولكنه يقصد إليه ليبثه الحنين والاشتياق؛ حيث يمثل المكان البيئة الحاضنة للذكريات التي يعانيها وافتقدها في الغربة؛ فتهيج أحزانه، وتثقل على صدره.

ولا يختلف ابن منقذ عن غيره من الناس الذين استوت صدورهم على كرامة الفطرة في القناعة بالأوطان، حتى لو تعددت أسباب التنقل والاغتراب، وقد قيل : "ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم" وإن عمر بن الخطابﷺ قال: " لولا تفرق أهواء العباد لما عمّر الله البلاد"(١).

٣- الحنين إلى الأوطان:

الحنين إلى الأوطان طبع أصيل لدى النفوس البشرية، ويرتبط دائما الحنين إلى الأوطان بمشاعر الاعتزاز بالوطن والشعور بكرامة الوطن على وطنه وأهله. وروى الجاحظ أنه " قيل لأعرابي: ما الغبطة؟ قال : الكفاية ولزوم الأوطان والجلوس مع الإخوان، وقيل : فما الذل؟ قال: التنقل في البلدان والتنحي عن الأوطان"(٢).

والتعبير عن دلالة الحنين إلى الأوطان يأتي تتميما للتعبير عن دلالة الاغتراب، فإذا كانت التعبير عن الغربة يكشف المعاناة فإن التعبير عن الشوق يكشف الافتقاد، والاشتياق يكون للمفتقد إذا غاب غيابا ماديا أو معنويا، ويزداد إذا اجتمعت الحالين بالاغتراب.

ولقد كان الحنين إلى الأوطان والأهل والديار محل اهتمام الكثيرين من الكتاب والأدباء في التراث العربي، ومنهم من أفاض في ذلك فوضع كتابا، وثمة من أوجز فكتب رسالة ضمن كتاب، وأكثر هؤلاء المؤلفين من أهل القرن الثالث الهجري من علماء الأدب أو اللغة أو الحديث الشريف(٣).

وتفيض اختيارات ابن منقذ رقة وحنينا، بل تفيض تصريحا في العلاقة بين مفهوم الوطن وإن تعدد اللفظ الدال عليه تصريحا وتضمينا، ولفظ الحنين ذاته ، ففي صورة حانية يخط إلى أخيه، وهو في دار غربة حلت به في إربل، يعبر عن اشتياقه لموطنه في شَيزَر وإخوانه وذكرياته، دافعا عنه اللوم في حنينه واشتياقه إلى ذلك كله، ومؤكدا العذر لمجاري الدمع وقد استهلت، يقول(٤):

---

(١) رسائل الجاحظ، ٦٤/١

(٢) المحاسن والأضداد، الجاحظ، نشرة مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤م، ص ٧٨

(٣) الحنين والغربة في الشعر العربي، الحنين إلى الأوطان، يحيى الجبوري، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٨، ص ص ١٥-١٦

(٤) السابق، ص ٣٠٨

وإنّ امـــــــــرَأً بإربَـــــــــلَ دارُه وفـــي شَـــيزَرٍ إخوانُـــهُ وشُـــجونُه
لَغيـــرُ ملـــومٍ فـــي الحنـــينِ إلـــيهمُ ومعـــذورةٌ أَنْ تـــستهِلَ جُفونُـــهُ

وهو في ذلك يجادل عما يؤمن به ويجيش في صدره من الحنين والاشتياق، ويدفع اللوم عن نفسه، كأنه يذكّر بما روي عن الحكماء بأن " الحنين من رقة القلب، ورقة القلب من الرعاية، والرعاية من الرحمة، والرحمة من كرم الفطرة، وكرم الفطرة من طهارة الرِّشدة، وطهارة الرشدة من كرم المحتد"[1]

ويؤكد ابن منقذ على أن الغريب يشتاق عند غربته؛ فيذكر الأهل والجيران والمسكن والوطن، ويشتد الشوق إذا ما أمسى الوطن وقد صار يخلو من ذكرى الأحبة أحياء، فكأنه لم يبق منه إلا صورة القبر قد واراهم وصار لهم وطنا ومستقرا، فلا عودة لهم منه، ولا شفاء للاشتياق إليهم يرتجي، يقول[2]:

أشتاقُ أهلـــي وأوطـــاتي وقـــد مُلكـــتْ دوني وأفنـــى الـــرّدى أهلـــي وأحبـــابي
فأســـتريح إلـــى رؤيـــا القبـــور، ففـــي أمثالهـــا حـــلّ إخـــواني وأترابـــي
ولـــست أحيـــا حيـــاة أســـتلِذُ بهـــا من بعدِهم ولحـــاقُ القـــومِ أولـــى بـــي

ويشتد الاشتياق على المرء إذا اجتمعت عليه صنوف الاغتراب، اغتراب عن الوطن واغتراب عن الأهل ، فلا سبيل للبر بهم، وقد انتأى به المستقر في غير وطنه، وهم قد استبْدلوا بالأوطان قبورهم بين مصر وشيزر، كأنما اجتمعت صروف الدهر على حرمانه من بر الآباء، فما أشد الظلم الواقع عليه!، يمنعه حتى زيارة من ماتوا من الأهل، حتى أنه لا يدور يعيني حالم ولا بخاطره. يقول[3]:

نافـــستني صـــروفُ الـــدّهرِ فـــي الفـــو زِ بِبـــــرِّ الآبـــــاءِ فـــــي الـــــرَّجَمِ
لـــــو كنـــــتُ أســـــطيعُ أنْ أزورَهمـــــا مـــشيًا علـــى الـــرأسِ لا علـــى القـــدَمِ
بـــادرْتُ أمـــشي إلـــى ثَـــرَىْ جَـــدَثَيْ أعـــــزِّ أهلـــــي علـــــيَّ كـــــالقَلَمِ
لكـــن بمـــصرَ قبـــرٌ، وفـــي شَـــيـْ ـــــزَرَ قبـــرٌ وداري بمُنتـــأى العَجـــمِ

(1) رسائل الجاحظ، ٣٧٧/٢
(2) الديار والمنازل، ص٢٢٥
(3) السابق، ص ٤٢٢،٤١٩

والظلـــمُ فـــي الأرضِ مـــانِعي كُلْـــ ـــلَ مـــا أبغيـــه حتـــى زيـــارة الـــرِّمَمِ

ومـــا ظننـــتُ الـــذي لقيـــتُ مـــن الـــدْ دُنيـــا تـــراه عينـــايَ فـــي الحُلُـــمِ

إن الشاعر ابن منقذ يستمد عناصر تشكيل الصورة من معاينات ماثلة في الواقع، ويجعلها في نسق خاص لم يكن من قبل، فتستحيل حقيقة المكان في الشعر حقيقة نفسية وليست موضوعية، حقيقة نفسية تستلهم من دلالة المكان وما يرتبط به من أحداث وأشخاص وسائل تعبر عن الحالة النفسية التي يكون عليها المبدع في علاقته بالمكان وما يحيط به من خصائص تتعلق بالزمن والناس الذين ارتبط بهم.

وهو في ذلك تشعر كأنه يفتقد وهو بمعزل عن المكان، إلى الشعور بتكامله، ولا سبيل لديه إلا من خلال الإلحاح على المكان في الطلب والتعبير عن الحنين إليه في صور مكتظة تعبر عن كثافة الحالة النفسية لديه. وترتبط الصورة بكل ما يمكن تمثله قائما في المكان، والصورة المكانية إلى جانب الصور الحسية الأخرى تعبر في مجملها عن تحرك و نماء نفسي يحقق التكامل بين الشاعر والحياة في القصيدة[١].

ومعلوم أن حقيقة المكان النفسية تقول: "إن الصفات الموضوعية للمكان ليست إلا وسيلة أو وسائل قياسية تسهل التعامل بين الناس في حياتهم اليومية... وعندئذ يكون تشكيل الشاعر للمكان في أغلب الأحيان مجافيا لهذه المقاييس، لكنه في الوقت نفسه يكون تعبيرا أصدق عن حقيقة المكان النفسية"[٢]

إن ما تعكسه الصورة في اختيارات ابن منقذ صور خيالية يصنعها خيال الشاعر ليكسب بها المعنى امتلاء، بتجسيم مشاعره في تركيبة حسية واقعية ليست هي المقصودة في ذاتها تصويريا، بقدر ما المراد منها انعكاس مشاعره من خلالها، ليست لقطة سينمائية لا تعدو عن كونها محاكاة للواقع، لا تحمل دلالة نفسية خاصة، أو ترتبط بموقف نفسي خاص، بقدر ما تسجل المشهد الطبيعي برموزه وحركاته وسواكنه تسجيلا أمينا كما هو الأمر في الواقع، وبين الحالين فرق كبير.

وختاما، فقد مضى ابن منقذ مخلفا طاقة من مشاعره تفيض حنينا على صورة المكان، تتجاذبها الدلالات الذاتية والدلالات الاجتماعية، لترسم صورة المشاعر والعلاقات الإنسانية، يجسدها إبداع متميز ، يربط بين المكان والحنين، من خلال

---

(١) التفسير النفسي للأدب، ص ٦٨

(٢) السابق، ص ٥٩

اختياراته من شعره في كتابه " المنازل والديار" ليضيف إلى الخط الموضوعي لكتابه، خطا نفسيا خاصا، رسمته اختياراته؛ لتؤكد أن موضوع الكتاب لم يكن ثقافة أدبية فقط، وإنما كانت جذوته نفس إنسانية، تعتملها المشاعر والأشواق والذكريات المبثوثة في المنازل والديار.

نتائج البحث:

١- تجلى مفهوم المكان الأدبي في علاقته بالدلالة النفسية والدلالة الاجتماعية لدى ابن منقذ موضوعا أدبيا خاصا، يضم تحت لوائه حقلا لغويا من الألفاظ العربية المختلفة من مثل: الأرض والمنازل والدور والبيوت، والمغاني والربوع ، والمساكن والمحال والمعاهد، والأعلام والمعالم والعرصات، والأوطان والبلاد والديار والمدن ، والأطلال والرسوم والدمن والآثار.

٢- مثلت اختيارات ابن منقذ من شعره في كتاب "المنازل والديار" صورة المكان الأدبي، في دلالتها الإبداعية الشعرية، الدلالات النفسية: الذاتية والاجتماعية.

٣- جاءت ثنائية المكان والحنين في صورة المقطعة الشعرية، تحقق مناسبة حجم البنية الشعرية المقطعية وموضوع الحنين، إذ هي البنية الشعرية المناسبة لدفقة شعورية تحمل في طياتها الدلالة النفسية .

٤- الصورة في اختيارات ابن منقذ الشعرية في كتابه " المنازل والديار" صور خيالية يصنعها خيال الشاعر ليكسب بها المعنى امتلاء، بتجسيم مشاعره في تركيبة حسية واقعية ليست هي المقصودة في ذاتها تصويريا، بقدر ما المراد منها انعكاس مشاعره من خلالها؛ فهو يستمد عناصر تشكيل الصورة من معاينات ماثلة في الواقع، ويجعلها في نسق خاص لم يكن من قبل، فتستحيل حقيقة المكان في الشعر حقيقة نفسية وليست موضوعية، حقيقة نفسية تستلهم من دلالة المكان وما يرتبط به من أحداث وأشخاص وسائل تعبر عن الحالة النفسية التي يكون عليها المبدع في علاقته بالمكان وما يحيط به من خصائص تتعلق بالزمن والناس الذين ارتبط بهم. ولعل هذا أهم ما تميز به ابن منقذ في شعره في كتاب المنازل والديار.

٥- الحنين إلى المكان هو المحرك لابن منقذ في إبداعه؛ فأنت تشعر كأنه يفتقد وهو بمعزل عن المكان، إلى الشعور بتكامله، ولا سبيل لديه إلا من خلال الإلحاح على المكان في الطلب والتعبير عن الحنين إليه في صور مكتظة تعبر عن كثافة الحالة النفسية لديه. وقد جمع عناصر صوره من المكان وسكان المكان مضيفا إلى ذلك مشاعره التي أفعم بها صوره وتراكيبه.

٦- إن ما تعكسه الصورة في اختيارات ابن منقذ صور خيالية يصنعها خيال الشاعر ليكسب بها المعنى امتلاء، بتجسيم مشاعره في تركيبة حسية واقعية ليست هي المقصودة في ذاتها تصويريا، بقدر ما المراد منها انعكاس مشاعره من خلالها،

ليست لقطة سينمائية لا تعدو عن كونها محاكاة للواقع، لا تحمل دلالة نفسية خاصة، أو ترتبط بموقف نفسي خاص، بقدر ما تسجل المشهد الطبيعي برموزه وحركاته وسواكنه تسجيلا أمينا كما هو الأمر في الواقع، وبين الحالين فرق كبير.

٧- مضى ابن منقذ مخلفا طاقة من مشاعره تفيض حنينا على صورة المكان، تتجاذبها الدلالات الذاتية والدلالات الاجتماعية، لترسم صورة المشاعر والعلاقات الإنسانية، يجسدها إبداع متميز ، يربط بين المكان والحنين، من خلال اختياراته من شعره في كتابه " المنازل والديار" ليضيف إلى الخط الموضوعي لكتابه، خطا نفسيا خاصا، رسمته اختياراته؛ لتؤكد أن موضوع الكتاب لم يكن ثقافة أدبية فقط، وإنما كانت جذوته نفس إنسانية، تعتملها المشاعر والأشواق والذكريات المبثوثة في المنازل والديار.

مراجع البحث:

١. أسامة بن منقذ حياته وآثاره، حسن عباس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، جمهورية مصر العربية،١٩٨١

٢. تاج العروس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي، المطبعة الخيرية، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط١، ١٩٨٦م

٣. التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل، مكتبة غريب، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط ٤، ١٩٨٤م.

٤. جمهرة اللغة ، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، تحقيق : رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين ، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٧م

٥. الحنين والغربة في الشعر العربي، الحنين إلى الأوطان، يحيى الجبوري، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٨م.

٦. دراسات في سيكلوجية الاغتراب، عبد اللطيف محمد خليفة، دار غريب ، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٣م.

٧. ديوان أسامة بن منقذ، تحقيق: أحمد أحمد بدوي، حامد عبد المجيد، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٥٣م.

٨. رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، نشرة مكتبة الخانجي، القاهرة، جمهورية مصر العربية، بلا تاريخ.

٩. شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، للمرزوقي، دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٢ م

١٠. العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ترتيب وتحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.

١١. القراءة النفسية للأدب، محمد عيسى، مجلة جامعة دمشق، سوريا، المجلد ١٩، العدد (١+٢) ، ٢٠٠٣

١٢. لسان العرب ، أبو الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم، دار صادر، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٩٤م.

١٣. مؤثرات الزمان والمكان في أدب ابن منقذ، راتب سكر، مجلة التراث العربي، دمشق، سوريا، العدد ٨٠، نوفمبر ٢٠٠٠م.

١٤. المحاسن والأضداد، الجاحظ، نشرة مكتبة الخانجي، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط٢، ١٩٩٤م
١٥. معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط١، ٢٠٠٨م
١٦. المعجم المفصل في الأدب ، محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٩م
١٧. المنازل والديار، أسامة بن منقذ، تحقيق: مصطفى حجازي، دار سعاد الصباح، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط٢، ١٩٩٢م.